جدل حول :

الخوارج وقضية التحكيم

دكتور محمود اسماعيل عبد الرازق
مدرس بكلية الأداب — جامعة عين شمس

يمثل الخوارج فى نظر مؤرخى الفرق الإسلاميـــة كل من خالف أو خرج على الخلفاء والأئمة سواء فى عصر الراشدين أو فى العصور التالية(١) ؛ باعتبارهم مارقين على رأى الجماعة الإسلامية التى اتفقت على اختيارهم . لـكن هـذا التفسير اللغوى لايستقيم مع التعبير الاصطلاحى الذى يخص بتلك التسمية جماعة أو فرقة إسلاميـة بعينها ؛ أو بالأحرى حزبا سياسيا دينيا معينا ؛ فإلى جانب الخوارج وجدت جماعات وأحزاب أخرى خرجت عن طاعة الخلفاء والأئمة .

فقد اصطلح على إطلاق لفظة الخوارج على تلك الجماعة التى شايعت عليا بن أبى طالب فى نزاعه مع معاوية بن أبى سفيان ثم خرجت عليه إبان حادثة التحكيم المشهورة وهى التى عرفت أيضا بالحرورية نسبة إلى كورة حروراء ـ بجوار الـكوفة ـ حيث لاذت بها بعد مفارقتها إياه(٢) . وإذا كان من المحقق أن الخوارج أطلقوا على أنفسهم اسم « الشراة » اعتقادا بأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، أو باعوا أنفسهم فى سبيل الله(٣) فليس من المستبعد أن يكونوا هم أيضا الذين سموا أنفسهم « خوارج » ـ كما ذهب

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٠٥ .
(٢) الإسفرائينى : التبصير فى الدين ص ٤٦ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٥ .
(٣) Smith : The Ibadites; Muslim World, Vol. 12, P. 284.

دوزى(١)ـ استنادا على قول زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي « ... فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البـــدعة المضلة (التحكيم) والأحكام الجائرة »(٢) .

والدارسون يذهبون مذاهب شتى فى تفسير ظهور الخـوارج ، وهى فى الغالب تستند على أسس سياسية واقتصادية واجتماعية . ونحن لاننكر أهمية الدوافع الاقتصادية والاجتماعية فى إجلاء غوامض التاريخ الإسلامى ، وهو أمر عول عليه كثير من المستشرقين من أمثال بارتولد وبيكر وكايتانى وماسينيون وبرناردلويس(٣) ، إلا أن الفهم الموضوعى لعصر النبوة والراشدين لايتم دون وضع العامل الدينى فى الاعتبار. فظهور الخوارج مرتبط حقا بمسائل السياسة والحـكم ، وأيضا بالتطـور الاقتصادى والاجتماعى الذى عم العالم الإسلامى بعد الفتوحات ، لـكن ذلك كله كان يجرى فى إطار دينى وفى مسوح إسلامى .

نفصل ذلك فنقول إن من المؤرخين من ذهب إلى أن ظهور الخوارج يعبر عن رغبة القبائل العربية من غير قريش فى إقصائها عن التشبث بالخـــلافة والاستئثار بالحـكم(٤) ، فالخوارج من هـذه الزاوية حزب سياسى وحسب(٥) ، وحركتهم

---

(١) Spanish Islam, P. 39.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : Lewis, B : Some Observations on the Sgnificance of hersey in the hitovy of Islam, Studia Islamica, 1, P. 46.

(٤) Muir, W : The Caliphate; itrrise, decline and fall, P. 281.

(٥) سهير القلماوى : أدب الخوارج فى العصر الأموى ، المقدمة ، ص هـ .

تمثل ثورة ديموقراطية ضد الارستقراطيةالتيوقراطية الجديدة من كبار الصحابة(١) فهم لذلك « جمهوريو الإسلام»(٢) « ودستوريو الإسلام »(٣) .

ومن المؤرخين(٤) من غلب العامل الاقتصادى الاجتماعى ، فرأوا فى ظهور الخوارج انتفاضة لعرب البادية الذين استوطنوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الأولى فهؤلاء — وخاصة من كان منهم من قبيلة تميم — كانوا قبل الاسلام يعيشون فى فقر مدقع ، ولم تتحسن أحوالهم كثيراً فى ظل الاسلام بينما كانت القبائل الأخرى تنعم بالثراء وترفل فى الترف ، فامتلأت قلوبهم حقدا وغيظا ، وزاد فى ثورتهم تمسكهم الشديد بالتقاليد والطبائع البدوية كالتعصب للقبيلة والولاء لها ، فنقضوا الحكومة السياسية وتمردوا على نمط الحياة الاجتماعية فى ظلها ، فثورتهم من ثم « تمثل ثورة البدو على سيادة الدولة»(٥) .

وثمة رؤية ثالثة(٦) تجمع بين الاتجاهين السابقين ، مؤداها أن بدو تميم احتدمت بينهم فكرة الخروج على نظام الخلافة القائم ، ورغبتهم فى الدعوة إلى نظام جديد للخلافة تعبر عن تطلع العرب من غير أهل الحجاز فى عدم التقيد بالخضوع لقريش.

---

(١) انظر :
Biquet, F : Hietoire de L' Afrique Septentrionale Sous la domination musulmane. P. 35.

(٢) Smith : Op. Cit P. 279.

(٣) Faroughy, A : A Persian dynasty in North Africa, The Rustumides: The Islamic Review, April, 1952. P. 12.

(٤) راجع : محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ص ١٠٤ ، عمر أبو النصر : الخوارج فى الإسلام ص ١٨ .

(٥) Lewis : Op. cit P. 47.

(٦) انظر : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ٢ ص ١٣٥ .

لكن الملاحظ أن الخارجية لم تكن حكراً على قبيلة تميم وحدها ، صحيح أن غالبية الخوارج الأول كانوا من تميم(١) ، إنما منهم أيضا من انتمى إلى القبائل الأخرى كبكر وهمدان والأزد وغيرها(٢) . بل وقفت بعض بطون تميم من الخوارج موقفا عدائيا ، وبطش بعض رجالاتها بزعامات الخـــوارج من بنى جلدتهم ، كعباد بن علقمة الذى قتل أبا بلال مرداس الخارجى(٣) ، وحرموز بن الهجـاءة قاتل أخاه قطرى أحد زعماء الأزارقة(٤) ، ومعقل بن قيس الرياحى قضى على حركة المستورد ابن علفة وسفك دمه(٥) ... الخ . معنى ذلك أن نزعة العصبية عند الخوارج كانت أقل خطرا وأهون شأنا من الرأى والمذهب(٦) ، وحسبنا دخول كثير من الموالى فى مذهبهم وعملهم جنبا إلى جنب مع العرب فى نصرته .

كما أن الهدف السياسى — لذاته — لم يكن محور نشاطهم وغاية مرامهم ، وفى ذلك يقول ابن خلدون (٧) « ... الخوارج المستميتون فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القومية » .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص٥١٦ ، ابن خلدون : العبر جـ٣ ص١٤٥ ، Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria. P. XXXII, Brockelman, k :History of the Islamic People. P. 70.

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٦٤ ،الدينورى : الأخبار الطوالى ص١٩٧ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٧٨ .

(٣) ابن حزم : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(٤) نفسه ص ٢٠١ .

(٥) نفسه ص ١٨٩ .

(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٧) المقدمة جـ ٢ ص ٦٩ .

لذلك نعتقد أن للعامل الديني أثرا واضحا في تطور تاريخ صدر الإسلام، ذلك أن الدين والدولة إذ ذاك شيء واحد، والجماعة السياسية انبثقت من الجماعة الدينية، وقد فطن إلى ذلك فلهوزن حين عالج تاريخ الخوارج والشيعة باعتباره تاريخ أحزاب سياسية دينية (١)، كذلك أ كدبناردلويس (٢) أن التاريخ الإسلامي حتى العصر الأموي كان في جوهره تاريخ « حركات سياسية دينية »، ونفس النظرة تتضح عند طه حسين (٣) في تناوله الفتنة الكبرى حيث ذكر أن « القدماء نظروا إلى جميع الأحداث التي كان منها عيب عثمان والاختلاف عليه نظرة دينية خالصة، كما نظر إليها الذين عاصروا عثمان سواء منهم من خاصمه ومن ناصره .. ». وليس ادل على أن كافة المشكلات السياسية في عصر الراشدين كانت ترى وفق منظور ديني من تمويل الأطراف المتنازعة علي تكفير بعضها بعضاً (٤)، وتبادلهـــا الاتهامات بالمروق والهرطقة (٥). فمسألة الكفر والإيمان صارت من ثم أم المسائل التي عالجتها كافة الفرق الإسلامية.

ولانزاع في أن ماشجر من خلافات داخل الجماعة الإسلامية إنما دارت حول مسألة الإمامة أو الخلافة، خاصة وأن الرسول (ص) مات ولم يضع نظاماً ثابتا محددا لمن يخلفه في حكم المسلمين. ولسنا بحاجة لعرض المشكلات التي نجمت عن

---

(١) وعنوان كتابه : أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام.

(٢) أنظر : أصول الإسماعيلية، المقدمة ص ٥.

(٣) أنظر : الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٧٥.

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٣٠.

(٥) Gautier : Les siecles obscurs du Maghreb, P. 260,
Bel : Lareligion Musulmane en Berberie. Vol. 1, p. 29,
Gibb : Mohammedanism, P. 110.

ذلك وهى مشكلات لاتنكر أن النعرات القبلية والأطماع الشخصية كانت تغذيها ، لكنها بوجه عام اتخذت طابعاً دينياً واضحا . فقد انبرى المسلمون يتلمسون فى القرآن والسنة مخرجا ، فكثراً لجدل والتأويل ، وتعددت الآراء وتشعبت ، وزعم كل طرف أن وجهة نظره هى الحق . ونجم عن ذلك كله ظهور الفرق الإسلامية التى كان خلافها فيما بينها « خلافا اجتهاديا فى مسائل دينية ظنية » (١) ومالبث هذا الخلاف أن تحول إلى صراع دموى عبر عنه الشهرستانى(٢) بقوله « وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ماسل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة » .

وتأسيسا على ذلك ،نرى أن ظهور الخوارج مرتبط بمشكلة الإمامة والاجتهاد حولها ، وحتى أعداؤهم نظروا إليهم نظرة من حاول الوصول إلى الحق فأخطأه(٣) ولم يكن بوسعهم إنكار حسن نواياهم فى طلب الحق وصدق عزيمتهم فى الموت دونه ، فلم يأخذوا عليهم أكثر من « إهمال النظر وإغفال التأمل بعين البصيرة والميل عن الحجة البحتة إلى الشبهة المهلكة » (٤) . بل إن فقيها مثل ابن عباس حين جادل زعماء الخوارج بالنهروان لم يحاجيهم بصحة موقف على إلا على أساس أنه « ... ابن عم الرسول (ص) وصهره وعليهم نزل القرآن وهو أعلم بتأويله » (٥) . وشهد

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ورد فى حديث نبوى عن عبد الله بن مسعود أن « الخوارج أمة يذهبون يريدون الحق فيخطئونه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » أنظر : ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ٩٨ ، ٩٩ ، مخطوط .

(٤) جعفر بن عبد السلام : إبانة المناهج فى نصيحة الخوارج ، ورقة ١٥٤ ، مخطوط .

(٥) ابن حيون : المرجع السابق ورقة ٨٧ .

على نفسه بحسن نواياهم تلك حين نهى ـ قبيل موته ـ عن قتالهم من بعده لأن «من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه» (١) فكأنه بذلك لم يطعن فى إيمانهم وإنما اكتفى بمهاجمة طريقة تنفيذهم لما أرادوا (٢) . ومن هنا يبطل الزعم بأن الخوارج هراطقة ، وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليهم تشددهم وتطرفهم فى معتقداتهم (٣) .

أما وقد انتهينا إلى أن نشأة الجماعة السياسية فى الإسلام انبثقت من الخلاف الفقهى الدينى (٤) ؛ فإن ظهور الخوارج لم يشذ عن تلك القاعدة ، وحسبنا أن قضية التحكيم بين على ومعاوية ـ وهى التى أسفرت ضمن ما أسفرت عن ظهور الخوارج كانت تكمن فى مسألة فقهية دينية بحتة هى هل يجوز تحكيم البشر فى أحقية إمام معترف به وببيعته ؛ أم لا ؟؟ . كانت إجابة أولئك الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد بالنفى بطبيعة الحال؛ ومن ثم انشقوا على على وكفروه بنفس الدرجة التى كفروا بها عدوه معاوية ، فكانت عداوتهم للخصمين المتنازعين قائمة على أساس خروجهما عن جادة الشريعة ، وكان ظهورهم على مسرح الأحداث للعودة بالحق إلى نصابه .

ويتفق الدارسون على صعوبة البحث فى تتبع نشأة الخوارج (٥) ، فمؤرخ تلك الحقبة «تكتنفه أعسر الامتحان وأشقه» (٦) . ومكمن الصعوبة ليس فى ندرة

---

(١) سهير القلماوى : أدب الخوارج ص ٣٢ .

(٢) نفسه ص ٣٣ .

(٣) Masqueray : Op. Cit. p. xv, Gibb : Op. cit. p. 110.

(٤) فلهوزن . تاريخ الدولة العربية ص ١ .

(٥) سهير القلماوى : أدب الخوارج ، المقدمة ، ص هـ .

(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٩٢ .

المعلومات وشحنها ، إنمـا في وفرتها واضطرابها ، والمرء بوسعه أن يدين من يشاء ويبرىء من يشاء وله في الحالتين من القرائن والأدلة مايعينه . وهـذا في الواقع يعكس حقيقة هامه هي إيمان أطراف النزاع جميعا بعدالة مواقفها، وتفانيها في النضال للوصول إلى مراميها. فعلي بن أبي طالب لم يخامره الشك في أحقيته للخلافة وجدارته بها بعد وفاة النبي مباشرة ، واستند شيعته على كثير من الأحاديث النبوية لإثبات هذا « الحق المشروع » (١) ، ولا يخفى أنه كان آخر من بايع أبا بكر من كبار الصحابة ، كما سكت على مضض حين آلت الخلافة إلى عمر بعد أبي بكر ، وفاض كيله حين تحولت عنه إلى عثمان بعد عمر (٢) ، فخرج عن صمته ، وضرب بسهم في الفتنة التي

---

(١) أنظر : ابن حيون : أساس التأويل الباطني ، ورقات ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، مخطوط .

(٢) لانأخذ بما قاله الدكتور طه حسين بأن عليا بايع أبا بكر مخلصا . (انظر : الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٥٢) . فقد ذكر في مكان آخر أنه « كان معارضا للخلفاء الثلاثة » (أنظر : نفس المصدر ص ١٥٣) . مصداق ذلك ماجاء بإحدى خطبه « ... بعد وفاة الرسول ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تعدل هذا الأمر عني ؛ فما راعني إلا إقبال الناس على أبي بكر ؛ فأمسكت يدي ورأيت أني أحق بمقام محمد في الناس ممن تولى الأمور ... فلما احتضر أبو بكر بعث إلى عمر فولاه ، فسمعنا وأطعنا وبايعنا وناصحنا ... فلما احتضر ؛ ألقت في نفسي ليس يصرف هذا الأمر عني ؛ فجعل الأمر شورى وجعلني سادس ستة ؛ فخشوا إن وليت عليهم أن لايكون لهم في هذا الامر نصيب ، فبايعوا اجتماع رجل واحد حتى صرفوا الأمر عني لعثمان ، فأخرجونا منها رجاء أن يتداولوها حين يئسوا أن يتداولوها ، ثم قالوا لي هلم بايع عثمان وإلا جاهدناك ، فبايعت مستكرها ، وصرت محتسبا ... »

راجع : ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج٢ ص ٥٠ .

أدت إلى مقتل عثمان (١) ، وإحداث صدع فى كيان الإسلام (٢) . أما معاوية فقد أخذ على كاهله عبء الثأر لعثمان ، متخذا من تلك الدعوى تكئة لتبرير مطامعه فى الخلافه . ومهما قيل حول صدق نواياه فى طلب الموادعة لو أن عليا سلم له قتلة عثمان (٣) ، فلاشك فى تطلعاته العريضة خاصة بعد أن آلت إليه قيادة العثمانية بعد مقتل طلحة والزبير ، وهو أمر أذكى إصراره على مطاولة علي ومنافسته على الخلافة التى آلت إليه بالفعل «منالبة» على حد قول ابن حزم(٤) . وأبان النزاع بين على ومعاوية برز الخوارج كحزب سياسى منشق رافض لدعاوى الشيعة والعثمانية، فكان خروجهم حسبما اعتقدوا طلبا للحق واحتسابا لله .

---

(١) انظر فى ذلك ما ذكره نصر بن مزاحم فى كتابه : أخبار صفين ص ١٠٥ ، ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٤ .

(٢) افترقت الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان — حسبما ذكر مؤرخ مجهول — إلى فرق ثلاث ؛ « فرقة قتلته ؛ وأخرى وقفت عنه وعن قتله ؛ وثالثة طالبت بدمه » ؛ فالفرقة القاتلة له تتمثل فى على بن أبى طالب وأصحابه من أهل المدينة والمهاجرين والأنصار ، والواقفة عنه تضم سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد؛ أما المطالبة بدمه فمن أقطابها طلحة والزبير ومعاوية . وقد عرفت الفرقة الأولى « بأهل الاستقامة » والثانية « بالشكاك » ، والثالثة « بالعثمانية » .

انظر : قطعة من كتاب فى الأديان والفرق ؛ ورقة ٢٧ ؛ مخطوط .

(٣) نصر بن مزاحم : أخبار صفين ص ١٠٣ .

وفى خطاب من معاوية إلى على فى هذا الصدد قال معاوية « .... إن الخليفة عثمان قتل معك فى المحلة وأنت تسلم من داره فلم تدفع عنه لقول ولا فعل ، وأقسم بالله لو قمت فى أمره مقاما صادقا فنهنهت عنه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحدا وأخرى وأنت بها ظنين؛ ايواؤك قتلته ؛ فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك . وبلغنا أنك تبتهل من دمه ، فان كنت صادقا فأمكنا من قتلته نقتلهم به ؛ ونحن أسرع الناس اليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ... » أنظر : الطبرى : جـ ٥ ص١٦، الدينورى : ص١٦٢، ابن الأثير : جـ ٣ ص١١٥ .

(٤) نقط العروس ص ٥٦ .

وبديهى — حسبما سلف القول — أن يبادر كل حزب إلى تبرير موقفه ودعمه بقرائن وأدلة مستوحاة من القرآن والسنة ، صريحة أو مؤولة . وبديهى أيضاً أن يعمد مؤرخو كل طائفه إلى الانحياز والتعصب الكامل لطائفته ، فالمصادر السنية والشيعية على السواء منحازة فى جانب على على طول الخط فى عرض حوادث صفين المثيرة ، ولدينا فى هذا الصدد روايتان هامتان إحداهما لأبى مخنف والآخرى لنصر ابن مزاحم المنقرى . ونعتقد أن وجهة النظر الأموية درست وذوت حين دون التاريخ فى العصر العباسى ، ونقف على آثار منها عند البلاذرى (١) . وإذا كانت المصادر السنية والشيعية تحمل على بنى أمية وتزيف أخبارهم ، فإن حملتها على الخوارج أشد وأنكى ، فهم كفرة مارقون يجب بترهم ، وعليهم تقع مسئولية خذ لان على بإرغامه على قبول التحكيم ثم معاودة إرغامه على التنصل منه (٢). ومن الطبيعى ألا نقف على روايات معاصرة تحمل وجهة نظر الخوارج ، رغم وفرة ماصنفوه من تواليف حوت عقائدهم وسيرهم وأخبارهم وطبقات مشاهيرهم ، وهو ما ذكره ابن النديم فى الفهرست ، فقد أبيدت كتب الخوارج وأحرقت على أيدى أعدائهم ، وماوصلنا من روايات متأخرة عن وقائع صفين لمؤرخين من الخوارج تلتهم بطابع التحيز الشديد لأجدادهم ممن عرفوا « بالمحكمة الأولى » ، فتلقى تبعة التحكيم وما أسفر عنه على كاهل على وتندد بضعفه وسوء رأيه . وهكذا نجد اضطرابا واضحا وخلطا شديداً يكتنف تاريخ حادثة خطيرة فى صدر الإسلام ؛ ألا وهى حادثة التحكيم (٣) .

ولما كان ظهور الخوارج مرتبطا بتلك الحادثة ، ومحاولة الكشف عن أصولهم

---

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، المقدمة ، س ت ، ذ .
(٢) انظر الناصرى : منهج المعارج لأخبار الخوارج ، ورقة ٦٢٥ ، مخطوط .
(٣) فلهوزن . تاريخ الدولة العربية ص٨٣ .

يلزم الباحث بالتعرض لمواقف أشخاص لهم فى نفوس المسلمين منزلة خاصة — وهو أمر يزيد البحث صعوبة — وجب أن نختط منهجا قوامه الغوص وراء الحقيقة فى خضم الروايات المتعارضة بعض النظر عن تلك المكانة الخاصة لأولئك الذين شاركوا فى قضية التحكيم، ذلك أن «النتائج التى ترتبت عليها — كما يعتقد البعض —(١) أكبر وأوسع وأضخم من هؤلاء الأشخاص».

وقضية التحكيم كانت ولاتزال مثار جدل بين المؤرخين، قدامى ومحدثين، وقصتها متواترة فى كافة التواريخ الخاصة بصدر الإسلام. وما ينبغى إيرازه أولا تشكيك بعض الثقاة فى روايتى أبى مخنف والمنقرى اللتين شاعتا فى تاريخ الطبرى ومن أخذ عنه. فابن عربى (٢) يقول فى هذا الصدر «... هذا كله كذب صراح، وإنما هو شىء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك». كما نقف على نزعة التشكيك تلك فى الجدل والمساجلات الكلامية التى كانت تجرى — لزمن طويل — بين متكلمى الخوارج والشيعة (٣). ونفس الاتجاه نجده عن بعض المحدثين من أمثال يوليوس فلهوزن (٤) وفيليب حتى (٥).

ومجمل القصة بصورتها الشائعة فى الرواية العراقية، أن الخلاف بين على ومعاوية تفاقم حتى قامت الحرب بينهما فى صفين سنة ٣٧هـ، تلك التى بدأت بمبارزات بين آحاد المعسكرين

---

(١) انظر : طه حسين : الفتنة الكبرى جـ١ ص ٤٩.

(٢) القواصم والعواصم ورقة ٢٠٨، مخطوط.

(٣) انظر : مجهول. محاورة بين شيعى وخارجى فى شأن الشيخين أبى بكر وعمر وشأن المحكمين وما قيل فى ذلك، ورقة ٨ مخطوط.

(٤) انظر : مقدمة كتابه عن الخوارج والشيعة.

(٥) انظر : History of the Arabs, P. 181.

كان الظفر فيها لرجال على. ثم اندلعت الحرب الشاملة والتحم جيشاً الشام والعراق ، وكانت الغلبة أيضا للعراقيين حتى صار النصر للنهائى وشيكا . غير أن حيلة أحكمها عمرو بن العاص وأقرها معاوية غيرت مسار الأحداث ، إذ أمر برفع المصاحف على أسنة الرماح تحكيما لكتاب الله فى الظاهر وبثا للفرقة فى جيش العراق فى الباطن. وقد فطن على للكيدة وحذر عسكره من مغبتها ، إلا أنه غلب على أمره ورضخ لمشيئة جماعة القراء الذين صاروا فيما بعد زعماء الخوارج ، فقبل التحكيم على مضض. كما أرغم أيضا على اختيار أبى موسى الأشعرى ممثلا له فى مفاوضة عمرو بن العاص . وكان ما كان من خدعة عمرو لأبى موسى وخلع على وتثبيت معاوية ، وخروج الخوارج . والرواية تدافع عن موقف على وتظهره بطلا دراميا مخذولا أسقط فى يده أمام ضغوط مصدرها خيرة رجاله الذين أرغموه على قبول التحكيم ، ثم عادوا يطالبونه بنكثه وهم الذين عرفوا بالخوارج ، ثم القبائل اليمنية وزعيمها الأشعث ابن قيس الكندى الذى خيره بين قبول التحكيم وبين تسليمه لخصمه والخروج عليه (١) .

أما مصادر الخوارج (٢) — وهى متأخرة نسبيا — فتلقى باللوم على على ، وتتهمه بالتفريط فى حقه تحت تأثير من الأشعث بن قيس ، وتبرر خروج الخوارج

---

(١) راجع : نصر بن مزاحم : ص ٢٥٠ وما بعدها ، الطبرى : جـ٥ ص١٦ وما بعدها ، المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٠ ومابعدها ، الدينورى : ص ١٨٩ وما بعدها ، الشهرستانى : ص١٠٥ ، ١٠٦ ، أبو الفدا : جـ١ ص ١٨٠ ، ابن عبدربه : العقد الفريد جـ٤ ص ٣٤٨ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل جـ٣ ص ١٢٦ وما بعدها ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ وما بعدها ، الناصرى : ورقة ٢٢١ وبعدها .

(٢) انظر : الشماخى : السير ص ٤٦ وما بعدها ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، ورقة ٦ ، مخطوط ، البارونى : الأزهار الرياضية جـ ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها ، دبوز : المغرب الكبير جـ١ ص ٣٤٠ وما بعدها .

بقبوله تحكيم البشر فى حق من حقوقه الأمر الذى يعنى الشك فى إمامته ،ومن هنا عمدوا إلى اختيار إمام منهم هو الله بن وهب الراسبي بعد رفض على إعلان التوبة تكفيرا عن إثمه . ومن مؤرخى الخوارج(١) من ذكر أن عليا استجاب لطلب التوبة ، ثم عاد فنكث تحت تهديد الأشعث . ويخرج بعض الدارسين(٢) من ذلك بان تواطؤا تم بين الأشعث وأهل الشام لبث الفرقة فى معسكر على وحرمانه من خيرة رجاله الذين صار واخوارج . وعموما ، تتلخص وجهة النظر الخارجية فى إلقاء مسئولية التحكيم على على ،ودفع التهمة عن الخوارج الذين ماخرجوا عليه إلا لقبوله إياه . ومن الغريب أن تجد فى بعض المصادر غير الخارجية — وبعضها شيعى — من النصوص مايدلل على صحة وجهة النظر الخارجية، فالنوبختى (٣) يقول «خرج الخوارج على على بعد تحكيم الحكمين » « لتفريطه فى حق من حقوق الرعية على الإمام وهو سد الثغور ، فاتهموه بتفريطه فى ثغر الشام بتحكيم الحكمين » على حد قول ابن طباطبا (٤) . وتتلمس عند الرازى (٥) نفس حجة الخوارج فى الخروج وهى أن قبول على التحكيم يعنى بطلان حقه فى الإمامة. كما نجد عند المبرد(٦) ماذكره مؤرخو الخوارج عن مسألة التوبة وقبول على إياها تكفيرا عن إثمه بقبوله التحكيم .

والواقع أن اختلاف الروايات وتضاربها لاينهض دليلا على الزعم بان حادثة التحكيم وهم تاريخى محض ، حقيقه نسيج حولها من الروايات ماجعل خيوطها تزادا

---

(١) الشماخى : ص ٤٩ .

(٢) Dozy : op. cit p. 37 ، طه حسين : الفتنة الكبرى جـ٢ ص ٨١، ٨٢.

(٣) فرق الشيعة ص ٢٦ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٨٢ .

(٥) اعتقادات فرق المسلمين ص ٤٦ .

(٦) الكامل فى اللغة والأدب جـ٣ ص ٨٩٢ .

اضطرابا ، ولـكن دراسة تلك الرويات وتحليلها مع إعمال العقل والمنطق قمين بأن يزيح كثيراً من الغموض ، ويكشف عن بعض الحقائق .

وأولى تلك الحقائق أن القتال فى صفين لم يجر فى صالح أهل العراق على طول الخط كما تزعم الرواية العراقية ، بل كانت الحرب سجالا ، وإن فاق جيش الشام جيش العراق تماسكا ونظاماً وهـو أمر يرجع كفته فيما لو استمر القتال . فأهل العراق لم يكن ولاؤهم لنصرة على وحماسهم لقضيته مخلصاً ؛ فمنهم من حاربه من قبل فى موقعة الجمل ثم أرغموا على مشايعته بعد مصرع طلحة والزبير ، وجلهم من أهل البصرة ، أما الـكوفيون ، فقـد سئموا القتال من جراء ما لاقوا من أهوال فى حرب الجمل . وهـو أمر لم يغب عن فطنة عمرو بن العاص حين حث جند الشام على طلب النصر حيث قال « .. إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلو احدهم ، ثم إن أهـل البصرة مخالفون لعلى ، قد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهـــل الـكوفة يوم الجمل(١) . . » معنى ذلك أن « جيش على كان يضم عثمانية لا يقاتلون معـه عن رضى وصدق بل كان منهم المخلص والمدخول ، (٢) أما جيش الشـــام ، فـكان يدين لمعاوية بالولاء ويطيعه طاعة رجل واحد إيماناً بعدالة قضية الثأر لعثمان(٣) . ولا غرو ، فحين التحم الجيشان فى صفين انـكشف أهل العراق « حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل فى مائتين أو ثلاثمة من القراء [الخوارج فيما بعد] قـــد أسند بعضهم ظهره إلى بعض(٤) » واستماتوا فى القتال . وقدهال انـكسار

---

(١) الطبرى : جـ٤ ص ٥٦٣ .
(٢) طه حسين : الفتنة الـكبرى جـ٢ ص ٨١ .
(٣) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٧ .
(٤) الطبرى : جـ٥ ص ١٨ .

جيش على رجلا كالأحنف بن قيس حيث صاح مذعوراً « هلكت العرب(١) » ؛ إذ بلغ عدد القتلى سبعين ألفاً من المسكرين جلهم من جيش على(٢) .

والحقيقة الثانية أن الدعوة للتحكيم صادفت هوى فى نفوس الأكثرية من جيش على ، بينما رفضت الأقلية مبدأ التحكيم من أساسه . والذى تؤكده أن الأقلية الرافضة كانت تشمل جماعة القراء التى أصرت على مواصلة القتال حتى النصر أو الموت دونه ، وهؤلاء القراء هم الذين صاروا خوارج بعد استجابة على لرأى الأكثرية(٣) وقبوله التحكيم . وسواء أكان قبول الأكثرية خذلاناً وضعفاً أو عن نية صادقة(٤) فى طلب السلم والموادعة أو نتيجة الشك فى موقف على وقبول التحكيم كسراً للشك باليقين (٥) ، فعليهم تقع مسئولية إرغام على على الرضوخ لمشيئتهم صاغراً (٦).

---

(١) نصر بن مزاحم : ص ٢٠٥ .

(٢) ابن الخطيب : رقم الحلل فى نظم الدول ص ١١ .

(٣) المسعودى : ج٢ ص ٤٠١ .

(٤) كانت جمهرة كبيرة من المقاتلة تحبذ وقف القتال حقنا لدماء المسلمين ؛ منهم الخارق ابن الصباح الحميرى الذى قال :

أعوذ بالله الذى قد أحتجب — بالنور والسبع الطباق والحجب
أنى ذوات الدين منا والحسب — لاتبكين عينى على من قد ذهب
ليس كمثل الله شىء يرتهب — يارب لاهلك أعلام العرب

انظر نصر بن مزاحم : ص ١٦٣ .

(٥) يتضح موقف جماعة الشكاك من الرواية الآتية « ... جاء رجل إلى عمار بن ياسر أثناء المعركة قائلا : إنى خرجت من أهلى مستبصرا فى الحق الذى نحن عليه لا أشك فى ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل ؛ فلم أزل على ذلك مستبصرا حتى كانت ليلتى هذه صباح يومنا هذا ؛ فتقدم منادينا شهد أن لا إله الله وأن محمد ارسول الله ونادى بالصلاة ، فنادى مناديهم بمثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ودعونا دعوة واحدة وتلونا كتابا واحدا ؛ فادركنى الشك . . . ».

انظر : نصر بن مزاحم : ص ١٦٦ .

(٦) ترى الدكتورة سهير القلماوى أن عليا رضى بالتحكيم حقنا لدماء ابنيه الحسن والحسين . انظر : أدب الخوارج ص ١٩ .

ولا تقع تلك المسئولية البتة على الأقلية كما زعمت الرواية العراقية ، فما خرجت الأقلية على على إلا لقبول التحكيم ورفض استئناف القتال . كانت جماعة القراء الخارجة مدفوعة فى رفضها التحكيم بسبب سياسى ، فقد رأوا فى استمرار القتال حتى الاستشهاد خيراً من وقوعهم تحت طائلة عقاب معاويةلو جاءت نتيجة التحكيم فى صالحه باعتبارهم ضالعين فى مقتل عثمان وأكثر جند على حماسة لنصرته(١). وثمة دافع آخر دينى ، إذ رأى القراء المستمسكون بأهداب الشريعة فى تحكيم الرجال فى حق منحه الله علياً بعد بيعتة بالخلافة خروجاً على الدين وكفرا بنعمة الله ، ومن ثم وجبت توبة على كشرط لعودتهم إليه ، فلما رفض إجابتهم خرجوا عليه نهائياً .

ولدنيا من النصوص ما ينفى عن الخوارج شبهة إجبار على بن أبى طالب على قبول التحكيم ، وما يؤكد خروجهم عليه لرفضهم مبدأ التحكيم من أساسه . ذكر ابن حبون — وهو مؤرخ شيعى — فى كتابه « شرح الأخبار » نقلا عن يحيى بن يحيى بن آدم عن حبيب بن أبى ثابت أحد رجال صفين « .. لما دعى عمرو إلى التحكيم ... ومال أكثر الناس إلى الموادعة ، جاءت الخوارج ونحن نسميهم براءة القراء واسيافهم على عواتقهم، فقالوا يا أمير المؤمنين أتمنعنا أن نسير بأسيافنا إلى هؤلاء فنقاتلهم ويحكم الله بيننا وبينهم .. » (٢) ويقول ابن قتيبة(٣) «.. لما سمع على قول الأشعث ورأى حال الناس قبل القضية وأجاب إلى الصلح ، قام إلى على أناس وهم القراء منهم عبد الله بن وهب الراسبى فى أناس كثير قد اختطوا

---

(١) Muir : op. cit. p. 281. ولعل فى إنكار عمار بن ياسر التحكيم وإقدامه على الموت بطريقة انتحارية مايرجح ذلك . أنظر : البرادى : ورقة ٦ .

(٢) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ١٠٣ ، مخطوط .

(٣) الإمامه والسياسة جـ٢ ص ٢٠٦ .

سيوفهم ووضعوها على عواتقهم ، فقـــالوا لعلى اتق الله فإنك قد أعطيت العهد وأخذته منا لنفنين عدونا أو يفىء إلى أمر الله ، وإنا نراك قد ركنت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله والذل فى الدنيا ، فانهض بنا إلى عدونا فلنحتـكم إلى الله بسيوفنا حتى يحـكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ... » ويقول مؤرخ مجهول(١) « الخوارج هم الذين خرجوا على على بن أبى طالب لما حـكم الحـكمين ، وذلك أنهم عاتبوه ومنعوه واحتجوا عليه، فتاب وأظهر لهم توبته،فبايعوه بعد التوبة ووازروه وقبلوا منه،ثم خرج عن قولهم إلى التحـكيم بعد التوبة والرجعة ... » وثمة قرائن أخرى تؤكد ماذهب إليه،منها رفض ابن عباس تلبية طلب على فى قتال الخوارج(٢) إيـماناً منه بصحة موقفهم ، فاكتفى بدعوتهم « لطاعة آل البيت (٣) » . بل نجد فى كتاب على إلى أهل النهران بعد إعلان نتيجه التحـكيم ما ينم عن ندمه واعتذاره واعـــترافه باستقامة رأيهم ، إذ ورد به « ... فهلموا نعطيـكم الرضى ونرجع إلى الأمر الأول الذى طلبتموه منى ونقـاتل عدونا وعدوكم حتى يحـكم الله بيننا والله خير الحاكمين »(٤) .

ولما كان الخوارج — حقا — براء من تهمة إجبار على على قبول التحـكيم ، وإذا كان على فى خطبه فى أهل العراق يبدى غيظا وحنقا عليهم لأنه قبل التحكيم كارها ، ولم يرض به إلا إذعانا ورضوخا لمشيئتهم ، وجب أن نبحث عن دوراتلك الطعنة من أهل العراق التى كانت وراء إذعانه ورضوخه .

والمصادر جميعا — سنية وشيعية وخارجية — تشير بأصابع الاتهام إلى قبائل

---

(١) قطعة من كتاب فى الأديان والفرق ورقة ٩٦ ، مخطوط .
(٢) مجهول : كشف الغمة لأخبار الأمة ورقة ٢٨٧ ، مخطوط .
(٣) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ٨٧ .
(٤) كشف الغمة ورقة ٢٨٠ .

كنده وزعيمها الأشعث بن قيس . فؤرخوا السنة يقرنون دوره بدور الخوارج فى الدعوة للتحكيم والحض على قبوله واختيار أبى موسى الأشعرى على كره من على اعتمادا على ثقل مكانته باعتباره زعيما لليمنية فى جيش العراق (١) ، حتى ليذكر المسعودى (٢) أن عليا اتهم الأشعث صراحة بأنه صاحب اليد الطولى فى مهزلة التحكيم . وفى نفس الاتجاه ينساق المؤرخون فيصورونه معول هدم وعامل فرقه فى معسكر على ، فتحت تهديداته تخلى على عن حقه الشرعى فى الخلافة بقبوله ذكر اسمه مجرداً من لقب « أمير المؤمنين » فى وثيقة التحكيم (٣) ، وهو الذى أوقع بين على وبين من عرفوا بالخوارج ، فحرضه على قتالهم واستئصال شأفتهم بالنهروان كشرط المضى معه بجنده اليمنية لقتال أهل الشام (٤) وهو الذى خذل عليا بعد النهروان حين أزمع قتال أهل الشام ، فانسحب بجنده إلى الكوفة متذرعاً بالحاجة إلى الراحة والاستعداد قبل المواجهة الحاسمة (٥) .

ومؤرخو الشيعة ينحون نفس النحو مبرزين دوراً مخرباً للأشعث فى معسكر على منذ البداية ، بلغ حد التآمر على حياته (٦) ، وقيل أنه تواطأ مع ابن ملجم فى المؤامرة التى انتهت بقتله (٧) .

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١٨٧ .
(٢) مروج الذهب جـ٢ ص ٤١٢ .
(٣) ابن الأثير : جـ ٣ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٤) نفسه ص ١٣٧ .
(٥) نفسه ص ١٣٩ .
(٦) قيل أن الأشعث دخل فأغلظ له على ؛ فعرض له الاشعث بأن يفتك به . عن مزيد من التفصيلات انظر المبرد : الكامل جـ٣ ص ٩٨٣ .
(٧) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢١ .

والرواية الخارجية تقول بتواطؤ مسبق بين الأشعث ومعاوية الذى كان يعده ويمنيه (١) ، فكان لذلك أداة له فى بث الفرقة فى جيش على، وحسبه نجاحا فى ذلك تحريض على قتال الخوارج والوقيعة بهم فى النهروان وحرمانه من خيرة جنده وأكثرهم إخلاصاً لقضيته (٢) .

ومن الدارسين المحدثين من أكد دور الأشعث الشائن هذا ،فدوزى(٣) أطلق عليه « الخائن الأعظم » على أساس أن اتفاقاً تم بينه وبين عمرو بن العاص بقصد خذلان على وإحداث صدع فى جيشه ، والدكتور طه حسين(٤) يرى أن « المؤامرة قد أحكمها الأشعث ماكر أهل العراق وعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم . . . فهى لذلك أثمار بين طلاب الدنيا من أصحاب على وأصحاب معاوية » .

وإذا كانت تلك الروايات جميعاً تدين الأشعث وتدمغه بالخيانة ، فلا نعدم من المؤرخين من دافع عنه وبرر موقفه، فالدينورى (٥) ذكر أن الأشعث تحمس للتحكيم عن نية صادقة فى حقن دماء المسلمين ، ذلك أن استمرار القتال كان يعنى « بوار العرب وضيعة الحرمات » على حد قول الأشعث نفسه . ويرى الدينورى أن أن الأشعث كان لذلك أول من فكر فى وقف القتال ، وأن فكرته صادفت هوى فى نفس معاوية ، فأمن قول الأشعث خشية — على « ذرارى أهل الشام من الروم وذرارى أهل العراق من دهاقين فارس » عن نية صادقة كذلك ، عندئذ دعى إلى إشهار المصاحف على أطراف القنا داعياً إلى تحكيم كتاب الله ، فاستجاب على

---

(١) الشماخى : ص ٤٧ ، ٤٨ ، البرادى : ورقة ٦٠ .
(٢) البرادى : ص ٦٩ .
(٣) Spanish Islam. p. 37.
(٤) الفتنة الكبرى جـ٢ ص ٨١ ، ٨٢ .
(٥) الأخبار الطوال ص ١٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

للدعوة عن رضى واقتناع؛ فكأن الدينورى لا يرى فى الموقف برمته شيئاً من تدبير أو مكائد . وهى رؤيا أخذ بها يوليوس فلهوزن (١) حيث قال « ... فالبحث عن خونة لا جدوى له ولا محل » فهو يفند مزاعم الخيانة والتواطؤ على أساس انتفاء دوافعها وأسبابها .

والقول الفصل فى موقف الأشعث — أمام تضارب الروايات — نتلمسه بالبحث فى مقومات شخصية ، الذى يستعرض حياته ، ويستقرىء مواقفه قبل صفين يمكننا — دون لأى — أن يقف على مكامن الخيانة فى طبعه ، رغم ما قيل عن إخلاصه لعلى إبان معركة صفين وصدق عزمه على حقن دماء المسلمين عن طريق الدعوة للتحكيم . فمن مظاهر الولاء المزعوم موقفه البطولى حين أقصى جند الشام عن موارد المياه بصفين حين عولوا حرمان جيش من السقيا (٢) والراجح — فيما نعتقد — أنه كان مدفوعا لذلك بالحفاظ على حياته وحياة رجاله من اليمنية أكثر من إخلاصه لعلى وقضيته وما قيل عن رفضه الأب الانضمام لمعاوية حين ألح فى استمالته (٣) ، يفسر فى ضوء الخصومة التقليدية بين قومه من اليمنية وبين القيسية أشياع معاوية. كان الأشعث « رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن (٤) » يتطلع إلى مكان الصدارة عن طريق

---

(١) الخوارج والشيعة ص ٦ — ص ١٣ .

(٢) نصر بن مزاحم : ص ٨٧ ، الدينورى : ص ١٦٩ . وتذكر الرواية أن الأشعث قال لعلى : « يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ، خل عنا وعن القوم فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . فقال على : ذلك إليك ، فرجع الأشعث فنادى فى الناس : من كان يريد الموت فعاده الصبح ، فإنى ناهض إلى الماء . فأتاه من ليلة اثنى عشر ألف راجل ، فشد عليه سلاحه مرتجزا :

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا ولا أمر بغير نصح دبوا إلى القوم بطعن رمح

فلما أصبح ، زاحف أبا الأعور فاقتتلوا ، وصدمهم الأشتر والأشعث فنفيا أبا الأعور وأصحابه عن الشريعة وصارت فى أيديهما ، . انظر : نصر بن مزاحم : ص ٨٧ .

(٣) نفسه ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) نفسه ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

الرهان على الجواد الرابح ، والموقف قبيل صفين كان ينبىء بارتفاع أسهم على خاصة بعد انتصاره فى حرب الجمل . فالأشعث من ثم كان من أولئك النفر الطموحين الذين يغلبون الاعتبارات القبلية والأمجاد الشخصية على الحماس للقضايا الدينية والإخلاص فى نصرة أصحابها .

وسجل حياة الأشعث ينطق بما يؤيد ذلك ويؤكده ، فقد أسلم فى عهد الرسول قسراً حين أعيته الحيلة والقدرة على مناهضة تيار الإسلام الجارف ، ثم ارتد بعد وفاته وألب قومه على أبى بكر وورطهم فى حروب الردة ، لكن أذعن من جديد معلنا توبته التى قبلها أبو بكر على مض (١) . وفى خلافة عمر ذوى شأنه أمام هيبة عمر وسطوته ، ثم عاد للظهور منتهزا ضعف عثمان ، فزوج ابنته لعمر بن عثمان ، وظفر بولاية أذربيجان (٢) . ولما قتل عثمان وبويع على بالخلافة عزل عن إمارته فرضخ للأمر كارها ، مضمرا لعلى شرا مبيتا . وكان رضوخه — كما قلنا — مداراة لعلى الذى بدأ نجمه فى الأفق صاعدا(٣) .فلما بدأ فى الأفول فترت همته فى نصرته ،وطفق يظهر ما أضمر من أحقاد . ومع أننا نشارك فلهوزن(٤) الرأى فى استبعاد تدبير لعبة التحكيم مع عمرو بن العاص ، إلا أنه لايمكن الشك فى دوره الفعال فى الدعوة له والحض عليه والترويج له بين القبائل منتهزا فى ذلك موجات الشك ومشاعر الهلع ودعاوى الخذلان جنبا إلى جنب مع صدق النوايا فى إيثار العافية والرغبات الحقيقية فى وضع حد للفتنة الكبرى . وكلها أمور جالت بصدور عسكر على ، انتهزها الأشعث فى تأليب أكثرية الجيش على علىّ لوقف القتال . وهكذا أسهم — سواء عن حسن نية

---

(١) قبل أن أبا بكر ندم على ذلك لأنه كان يرى فى الأشعث «رجلا لا يرى غيا ولا شرا إلا أعان عليه . ابن قتيبة : الإمامة والسياسة حـ ١ ص ٣٢ .

(٢) نسفه حـ ٢ ص ١٤٩ .

(٣) نصر بن مزاحم : ص ١٤ .

(٤) الخوارج والشيعة ص ٧ ، ٨ .

أو سوء قصد — فى إقرار مبدأ التحكيم وإرغام علىّ على الأخذ به ، وكبح جماح القلة المخلصة الرافضة له واستئصال شأفتها فيما بعد فى النهروان ، فكان فى النهاية معول هدم فى قوة جيش العراق .

الخلاصة — أن عوامل الضعف والفرقة فى معسكر علىّ أفرزت نتائجها الطبيعية وما كان بوسع علىّ وقف تيارها ، فقد أفلت من قبضته زمام الموقف حين غلبته الأكثرية وأرغمته على التفريط فى حقه الشرعى فى الإمامة بقبول التحكيم .

الذى نستخلصه فى النهاية ، براءة القراء الذين صاروا خوارج من مسئولية التحكيم انطلاقا من موقف سياسى ودينى فى آن واحد ، جعلهم يثورون رفضا له لارغبة فيه .

ومما يؤكد ذلك أن أول شعار نادوا به هو « لاحكم إلا لله » ، فقد قيل(١) إن « رجلا من ربيعة من بنى يشكر كان مع علىّ بصفين ، فلما رأى اتفاق الفريقين على الحكمين استوى على فرسه وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلا ، وعلى أصحاب على وقتل منهم رجلا ، ثم قتل أصحاب على حتى قتله رجل من همدان ». وقيل (٢) إن أول من حكم كان عروة بن أدية الذى شد بسيفه على الأشعث ابن قيس فأخطأه حين كان الأشعث يقرأ وثيقة التحكيم على قبائل تميم . وذكر (٣) أن أخوين من عنزة هما جعد ومعدان — صاحا فى وجه الأشعث « لاحكم إلا لله » وضرباه فأخطآه ، ثم شد على أهل الشام حتى قتلا . وفى قول(٤) رابع أن أول من حكم هو سعيد بن محارب من قيس عيلان . وفى رواية أخيرة(٥) أن الحجاج ابن عبدالله المعروف بالبرك كان أول المحكمة .

---

(١) البغدادى : ص ٧٥ ، الإسفرائينى ص ٤٦ .

(٢) الطبرى : حـ ٥ ص ٥٥ ، المسعودى : حـ ٢ ص ٤٠٤ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٤١٠ .

(٣) الدينورى : ص ١٩٢ .

(٤) المبرد : حـ ٣ ص ٩٠٩ .

(٥) نفسه ص ٩١٧ .

ومهما اختلفت الروايات فالمحصلة النهائية أن المحكمة أو الخوارج ارتبط ظهورهم برفض التحكيم وليس بالدعوة له كما زعمت الرواية العراقية. وهذا محض اجتهاد متواضع فى قضية أثارت الخلاف بين القدامى والمحدثين، وخفيت حقيقتها حتى على أولئك الذين عاصروها، بل كثر الجدل حولها بين من عايشوها، وهو جدل دار بين تبادل « السباب والشتائم والضرب بالمقارع ونعال السيوف بين الرجل وابنه « والأخ وشقيقه » على حد قول المسعودى (١)

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٥.